4

البدائل الأوروبيـة

هل كانت قضيـة خاسرة؟

كان التقسيم الجلي للعالم الناتج عن الحرب هو الأكثر وضوحاً في أوروبا. استمرت التكهنات حول قدرة القارة على التعافي، وهو ما اتضح في الجزء الأخير من الحرب. لقد بدا موقفها محفوفاً بالمخاطر ومكانتها العالمية السابقة غير ثابتة، في أحسن تقدير. لم يكن باستطاعة أي ولاية في 1945 التحدث باسم أوروبا في الأمم المتحدة الجديدة. افترض البعض أن القارة، وربما كانت حضارة، قد دمرت نفسها في النهاية. إن النضال الثاني علي السلطة في أوروبا قد قوض على نحو مهلك، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، السيادة التي مارستها القارة على القارات الأخرى. كانت أوروبا في 1945 تبدو في نظر رئيس الوزراء البريطاني "ونستون تشرشل" كومة ركام، مقبرة، أرض خصبة للكراهية والأوبئة. أثناء الحرب في نيويورك حذر الفيلسوف الفرنسي الطومسي المنفي "جاك ماريتان" من الحلول السهلة. كان العالم مريض للغاية بحيث كان من الصعب علاج مرضه. لقد كتب محذراً من النزعة الفردية الفوضوية والتي كان يعتقد أنها السبب في تدمير مبدأ الديموقراطية. لم تنتصر الديموقراطيات فقط على هتلر ولكنها انتصرت أيضاً على تناقضاتها الذاتية في المجالات الاجتماعية والروحية. لقد كان موقفاً يسعي له هو وآخرون

في فرنسا وفي البلدان المنخفضة وفي المناطق البعيدة عن أوروبا الكاثوليكية. بدت هذه المخاوف راسخة. إن الديموقراطية الغربية بحاجة للحماية. على الرغم من ذلك، ففي هذه المرحلة، لم تكن الحضارة هي ما وحدت الأوروبيون ولكن ما وحدهم هو تجربتهم المشتركة من نقص الطعام والوقود والسكن. هدمت الأنظمة الاقتصادية. وتبعثرت المدن: لينينغراد، وارسو، هامبورغ ودريسدن وغيرها الكثير إلى أجزاء. كان الحرمان المادي سيء بما فيه الكفاية لكن الأزمة الروحية الأوروبية كانت أشد خطراً من ذلك. ففي الوقت المناسب وعلى الرغم من كونه وقتاً طويلاً ستتعافى الأنظمة الاقتصادية وسيزرع الطعام أو سيتم استيراده وسيعاد بناء المنازل. الأقل تأكيداً هو أن الحضارة الأوروبية يمكن إعادة بنائها. اجتمع الفلاسفة الأوربيون، الذين يعملون ضمن تقاليدهم القومية، لمناقشة الروح الأوروبية وتفكروا في احتمالية إحيائها. سعي البعض للجوء من قبيل العبثية. كانت هذه الأفكار ذات وزن، لو كانت محدودة العملة خارج دوائرهم الخاصة. استقر مؤرخو أوروبا الغربية المنتصرة مسترشدين في ذلك بالعالم البريطاني السير إرنست باركر، على النظر في مجمل الماضي الأوروبي. وبما أنهم بطبيعة الحال قد أخذوا وقتهم، لم يستطع صناع القرار ولا الرأي العام انتظار مثل هذه الرؤى. وبطبيعة الحال أيضاً اختلفت التفسيرات المقدمة في هذا العمل وفي أعمال أخرى ذات سياق مماثل. لكن المكونات الأوروبية الفريدة من التألق والعظمة كانت بحاجة للمزيد من التعمق. وعند الفرز الأكاديمي، كان من الجيد تماماً التفكر في أوروبا على هذا النحو. وبشكل عام فإن الشعور بالضيق ربما تعاني منه القارة ككل لكن مسئولية ما حدث قبل 1945 محددة بشكل صارم. أعلن الحلفاء في 1943 أن مرتكبي جرائم الرب سيحاكمون ويعاقبون. ومن بداية خريف 1945 وقبل القضاة الروسيين والأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين، كان كبار مجرمي الحرب مذنبين وعوقبوا بالإعدام شنقاً أو بالسجن لمدد متفاوتة. هذه المحكمة الدولية العسكرية التي عقدت في نورمبرج كانت بطبيعة الحال في موضع تهمة بأنها كانت تمثل عدالة المنتصرين. وقد تنطبق أيضاً جرائم التآمر لإرتكاب جرائم ضد السلام على غزو الاتحاد السوفيتي لبولندا في 1939. ولكن على الرغم من غض الطرف عن الكثير، كانت المحكمة تؤكد من حيث المبدأ أن جرائم الحرب يمكن تقديرها بلا تحيز. دعا المدعي العام

الأمريكي يتحذلق المنتصرين بإذعان أسراهم لـ "حكم القانون"، أحد أهم القرابين التي قدمتها السلطة للمنطق. داخل الدولة الواحدة كان تحديد ومعاقبة الأفراد سواء من خلال إجراء قانوني أم لا أحد الأساليب المألوفة بعد الحرب. كان فصل الخراف عن الماعز أسهل بكثير في بعض الدول عن الأخرى. ودائماً يختلف السلوك وقت الحرب تحت الاحتلال. استمر سلوك الملك "ليوبولد الثالث البلجيكي" لسنوات حتى تنازل في نهاية المطاف. تم إعدام الخائن في النرويج. حُكم علي الإمبراطور الروماني" أنتونيسكو"، وقت الحرب بالإعدام. وحدث نفس الشيء مع "ميهايلوفيتش" في يوغوسلافيا. واستخداماً للمصطلح الفرنسي l"épuration فإن ذلك كان تطهيراً على أوسع نطاق. حتى البريطانيون تمكنوا من العثور على اثنين من الخونة لشنقهم.

كانت هذه عدالة من نوع قاسي. في أساسها يوجد افتراض أن الأشخاص المذنبين قد خانوا بلادهم. وبالفعل فقد قامت المحاكم المحلية في تشيكوسلوفاكيا بتوجيه تهم لأكثر من مائة شخص بالإساءة للشرف القومي. من جانبهم قام حاملي الشرف القومي بذلك، خاصة في بلاد مثل تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا حيث كانت الشعوب في نزاع والتعايش الأخوي لم يكن ظاهراً. في فرنسا تولي ديغول السيطرة على الشرف القومي. وقد أشاد في خطبه العظيمة بالمقاومة المزعومة للأمة بأسرها. وعلي الرغم مما قد يبديه المظهر، أصر ديجول علي أن مكانة الأمة الأساسية غير منقوصة. وظهرت الآثار التي تحيي ذكري شهداء المقاومة المحلية. لم يكن من الممكن استيعاب نظام حكم فيشي وليس من الممكن طمسه أيضاً. كان لابد من تجميع الجيش الفرنسي بعد تواجده المتبعثر. سُمح لبيتان، الذي حكم عليه بالإعدام، بالموت في السجن (في 1951). رأي المؤرخ الفرنسي، فرناند بروديل والذي لاقي الكثير من الإعجاب في وقت لاحق أن فرنسا في حالة استرخاء عميق وعلم في سجنه الحربي في لوبيك بشمال ألمانيا أن ذلك سيدوم للأبد. وهنا تحدث الفرنسي المولود في لورين عندما تم دمجها في الإمبراطورية الألمانية.

ألمانيا، بريطانيا، وفرنسا: خلق وحدة أوروبية (غربية)

كيف يمكن استعادة أوروبا، إذا كانت فكرة الاستعادة هي الفكرة الصحيحة. في البداية بدا أن الدور البريطاني دوراً محورياً. حث تشرشل جمهوره، في الخطب التي ألقاها في العديد من المدن الأوروبية بعد الحرب، على فكرة أوروبا الموحدة، على الرغم من عدم ذكر تفاصيل كيفية تحقيق ذلك. وكما ذكر، فإن التصالح الفرنسي الألماني كان هو الحل. تقع الصعوبة في الماضي وحقيقة أن ألمانيا لم تكن موجودة في حينها، وبعدها بعقد بدا أنها لن تتواجد أبداً مرة أخرى. ظهرت العديد من التساؤلات حول ألمانيا. إن بحث الأوروبيين عن ماضي صالح للاستخدام كان هو الأكثر تعقيدا كما كان مثيراً للجدل وطويل الأمد عندما وصل الأمر للماضي الألماني. تم استهلاك المخزون الورقي في بريطانيا وقت الحرب في شرح مشكلة ألمانيا. ظل المؤرخون حول العالم مشغولون. في مكتبة الكونجرس بواشنطن بعد أسابيع قليلة من استسلام ألمانيا، تحدث الروائي الألماني بالإنجليزية عن ألمانيا والألمان. وألقي الضوء على مدي تأثر التاريخ الألماني الحديث بالعصور الوسطي، أسطورة الرايخ. يري المؤرخ الألماني هينريتش ينكلر أن حكم هتلر هم ذروة التمرد الألماني علي الأفكار السياسية للغرب. كان السؤال بعد الحرب هو أين تنتمي ألمانيا، ليس لأن هناك ألمانيا واحدة .للإجابة عن ذلك سيتم إعادة بنائها تحت سيطرة المنتصرين عليها، قوي الاحتلال الأربعة ومناطق الاحتلال الخاصة بهم (والتي شملت برلين). شكلت بريطانيا وفرنسا وأمريكا "الغرب" في ألمانيا كما شكل الاتحاد السوفيتي "الشرق". لم يكن من الممكن تحديد مصير العاصمة، التي تحولت لبقايا محطمة، من قِبل أي من المنتصرين. كان كل محتل عازماً على ألا تصبح ألمانيا في وضع يمكنها من السيطرة على أوروبا مرة أخرى. وسواء ما كان ذلك يستلزم حيادها الدائم فإن ذلك أمراً آخر. كلٌ كانت له رؤيته المختلفة، عما سوف يستلزمه الإصلاح وإعادة التعليم والتخلص من النازية. كان لجميع الأوروبيون مصلحة في الشأن الألماني. إلا أنه في ذلك الوقت لم تكن مصلحتهم هم فقط.

بدأت أزمة حصار برلين في يونيو 1948. مُنعت المناطق الغربية الثلاثة في ألمانيا

المحتلة من قِبل الاتحاد السوفيتي من إرسال الإمدادات لبرلين الغربية (حيث تم تقسيم المدينة) عن طريق السكك الحديدية والطرق والمياه. أُرسلت الإمدادات فقط عن طريق الجو بواسطة الأمريكيين والبريطانيين بشكل رئيسي وذلك بفضل تحديد الممرات الجوية في مؤتمر بوتسدام في 1945. وصلت قاذفات القنابل بـ 29 إلى إنجلترا. كان يمكن أن يصل مداها إلى موسكو. كانت هناك تكهنات بأنها تحمل قنابل ذرية. وعندها رفع الاتحاد السوفيتي الحصار في مايو 1949على الرغم من استمرار التوتر لعدة شهور. أدي ذلك لتقريب القوي الغربية مع بعضها. بدأ سكان برلين الغربية في الشعور بأنهم هم أيضاً "غربيين" وتقبلوا أنفسهم على هذا النحو. لم يكن الدبلوماسيين الغربيين، الذين كانوا يقولون أن جسر الإمداد الجوي لن يستمر في دفاعه على المدى الطويل، الحق في الشعور بمثل هذا الإحباط.

نشأت أزمة برلين من القضية الألمانية التي ظلت دون حل. لقد ساعدت في تسريع الحل الذي كان في الواقع ينمو على الجانب العربي منذ 1947. وضعت الاجتماعات التي عقدت بين القوي الغربية وبعضها على مستويات عدة وبين القوي الغربية والاتحاد السوفيتي ألمانيا على أجندتها، ولكن لم يتم التوصل لاتفاق حول كيفية إعادة توحيد ألمانيا. كان الحصار السوفيتي رداً على توحيد المناطق الغربية الثلاثة وإصدار عملة جديدة، المارك الألماني. أعلنت القوي الغربية عن خططها لإجراء انتخابات الجمعية التأسيسية التي سوف تعد "القانون الأساسي" لولاية ألمانية جديدة. تم اتخاذ الخطوة الحاسمة. ما إذا كان سينجح هذا التحول المفروض ناحية الغرب كان أمراً آخر. وجدت ألمانيا المتجهة للغرب لنفسها عاصمة غربية في مدينة بون البسيطة. لم تكن برلين جزءاً من البلاد من الناحية القانونية. يخشى المراقبون الخارجيون من عدم الاستقرار، حيث أنهم يرون موقفاً لا يتمتع فيه الحزبين الألمانيين الرئيسيين بالأغلبية. قد تكون عملية استئناف الديمقراطية متزعزعة. إن الرغبة في قيادة قوية، والتي كانت واضحة في ألمانيا (وفي أماكن أخرى من أوروبا)، قد تتعثر.

في ذلك الوقت جاءت القيادة من الكاثوليكي السبعيني، من منطقة الراين، كونراد

أديناور (ولد في 1876)، والذي جاء قائداً حزباً جديداً" الديمقراطيين المسيحيين" يسعي للفوز بدعم كلا من الكاثوليك والبروتستانت. لقد كان يحمل القليل من الكلمات باللغة الإنجليزية ووجد صعوبة في التعامل مع البريطانيين (خبرة متبادلة)، ولكن مع فرنسا يمكن التفكير على النمط الأوروبي. كان ينظر للجمهورية الاتحادية على إنها ألمانيا الغربية. تلهف الديمقراطيين الاشتراكيين لخلق نظام اجتماعي اقتصادي مختلف ولمستقبل ألماني تماماً، ولكن لم يكن هناك بديلاً عن الموافقة كرهاً على التقسيم. جاءت الخطوة الأخيرة في عملية الاستعادة المبتكرة بإعادة تسليح والاعتراف بألمانيا الغربية في حلف الناتو في 1955 وذلك على أساس من المساواة. بمجرد تشكيل الجيش سيتم وضعه تحت قيادة الناتو. إن العد المحدد للتقسيمات سيعزز من قدرة القوة الغربية المعروفة في مواجهة الجيش السوفيتي المتوافق عددياً. ووراء هذا القرار حدث الكثير من الجدال داخل وخارج ألمانيا. لقد فشل مشروع الجيش الأوروبي ضمن مجموعة الدفاع الأوروبية بعد الكثير من المناقشات. وبحلول عام 1955، أمكن القول أن الحرب التي دامت من 1939 إلى 1945 قد أصبحت الآن من التاريخ. أزيلت القيود المتبقية على السيادة الألمانية الغربية. وقبل عامين، اعترف القائم بأعمال وزير الخارجية البريطاني "سلوين لويد" أنه في حين دعم أديناور والأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين ألمانيا المتحدة، فإنهم كانوا بالفعل يعتقدون أن ألمانيا المقسمة أكثر أماناً في الوقت الحالي. لكنه لم يكن من المستحسن التصريح بذلك علناً بسبب ما يحمله ذلك من تأثير على الرأي العام الألماني. ظن لويد أيضاً أن الاتحاد السوفيتي قد وصل إلى نفس هذا الاستنتاج. لقد كان هناك ألمانيتين وكانوا يسيرون علي طرق منفصلة تماماً.

تحدثت خطب تشرشل بعد الحرب والتي حثت الأوروبيون على التوحد فقط عن دعم المملكة المتحدة لهذا المسار لكنه لم يلتزم بالانضمام في هذه العملية. بعد هزيمته في انتخابات 1945، لم يستطع تقديم "أوروبا موحدة" ولم يستطع فعل ذلك أيضاً عندما عاد للسلطة في 1951. وقعت مسئولية تشكيل خريطة لأوروبا على عاتق حكومة حزب العمال في 1945 (على الرغم من أن رئيس الوزراء أتلي تحدث عن أن تحقيق النجاح في

الأمم المتحدة هو من أهم أولوياته). كانت بريطانيا قوة عظمي. وكانت القوات البريطانية لا تزال في ألمانيا. حظيت البلاد بالهيبة والتي تحققت نتيجة موقفها الفردي المستقل في 1940. لم تقترب الشخصيات البارزة بالحكومة من أوروبا كما فعل المتحمسون. كان أتلي الذي تلقي تعليمه في مدرسة أسستها شركة الهند الشرقية يعرف الكثير عن السياسة في الهند أكثر مما يعرف عنها في فرنسا. كانت الشئون الدومنيكية إحدى مسئولياته الوزارية وقت الحرب. وبعد الحرب كما سيتضح كان هناك الكثير من القضايا الغير أوروبية لدي الحكومة البريطانية لتنشغل بها. واجه بيفن، وزير الخارجية الجديد، العالم الخارجي فقط عند تفريغ السفن على أرصفة بريستول. وكشخص نقابي قبل الحرب، فقد مضت بضع سنوات لم يقم فيها بزيارة المؤتمرات في أوروبا الوسطي والغربية. كان لديه شبكة كبيرة من الاتصالات الأوروبية. وكما وصف نفسه بأنه "عملة نادرة" فقد كان خطابه صريحاً ومباشراً. لقد علم جيداً بوجود العديد من مشاكل ما بعد الحرب في جميع أنحاء أوروبا، بما فيها بريطانيا. لقد كان الأمر كما لو أن مستويات المعيشة قبل الحرب لم يعد من الممكن استعادتها. لقد كان مؤكداً أنه في هذه السنوات فقدت المملكة المتحدة سيطرتها على أوروبا. يتوقف الكثير على ما كانت تعنيه أوروبا في هذه المرحلة. في الواقع كنت أوروبا اختزالاً لمجموعة معقدة من التوجهات من جانب الدول الفردية، الكبيرة والصغيرة، لم توجههم التطلعات الاقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافية في نفس الاتجاه، أوروبا الموجودة حينها لم يكن باستطاعتها المناورة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، ربما لن تستطع أبداً. حاولت بريطانيا وفرنسا بالفعل إظهار سلطتهم العالمية لكنها كانت ضعيفة. عندما تجد هاتان الدولتان صوتاً مشتركاً عندها فقط تستطيع أوروبا إظهار نفسها. تحرك وزراء خارجية البلدين لتوقيع معاهدة، وذلك بعد نزهة منعشة على شاطئ دنكيرك في مارس 1947، وهو ما يمكن قراءته بطرق مختلفة، مع وضع إخلاء 1940 في الاعتبار. كانت الدولة التي يعدون أنفيهم لمواجهة عدوانها المحتمل، أو على الأقل كما ذكرت معاهدة دنكيرك، هي ألمانيا. بدا الأمر كأوروبا القديمة مرة أخرى، بكل تحيزاتها وتحالفاتها. تفكر المسئولون في موقع بلادهم في العالم. تحدث كلاهما عن الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا على أنهما عمالقة. كان التعاون الودي بين لندن وباريس

ضرورياً. كان لدي الدولتين الكثير من الأشياء المشتركة بالتأكيد. لقد كانتا من القوي الاستعمارية الكبيرة. وعلى المدى الطويل كانت مصالحهم السياسية واحدة. وبعد ذلك بعام، في مارس 1948، وقعت فرنسا وبريطانيا ودول البينلوكس معاهدة بروكسل، متعهدين بالمساعدة المتبادلة في حالة وقوع أي هجوم على أي منهم في أوروبا. وقد سهل استيلاء الشيوعيون على السلطة في تشيكوسلوفاكيا في الشهر السابق من توقيع هذه المعاهدة. كان الشك في هجوم من الاتحاد السوفيتي أكثر منه ناحية ألمانيا. كان من الصعب معرفة ما إذا كان هذا الاتحاد الغربي يتنبأ بقاعدة روحية أكثر للغرب (بمشاركة الولايات المتحدة) أم أنه نواة لأوروبا غربية تقف بين القوي العظمي.

وبالنظر عبر القناة، ففي العقد الأول بعد الحرب، وبالنسبة للحكومات البريطانية، كان الوجود الأمريكي حقيقة مرحب بها. لا يجب أن يعود يانكس إلى دياره. لقد خلقت الحرب علاقة حميمة استثنائية وكانت لا تزال تزدهر. لكن ذلك لم يعن أن العلاقة الخاصة التي اعتقد البريطانيون بوجودها بين البلدين كانت خالية من التوتر. استمر البريطانيون في الضغط قدماً متخذين قرار مستقل بتطوير قنبلتهم النووية الخاصة. تكرمت الحكومات الأسترالية بإتاحة أماكن الاختبار. شعرت لندن الرسمية بفقدان للمكانة ولكنها لم تشارك العداء للتدخل الأمريكي في أوروبا والذي كان يوجد فى فرنسا بشكل خاص. حاول ديجول في 1944، بنجاح ضعيف، إعادة إحياء العلاقة الفرنسية السوفيتية كوسيلة لمقاومة الوجود الأمريكي. كانت فرنسا بالطبع تريد امتلاك قنبلة ذرية. لم يعجب جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار أساس الحياة الفكرية الفرنسية بما وجداه عندما عبرا المحيط الأطلسي. بشكل ما كان على أوروبا أن تجد صوتها الخاص. كان المسئولين يفكرون فقط داخل مكاتبهم والتي كانت دافئة للعمل بداخلها ولكنها كانت باردة للعمل بالخارج. ثارت العواصف الثلجية في 1947. كان يعتقد أن هذا أبرد شتاء على الإطلاق في بريطانيا. وكانت أزمة الوقود وأزمة الطقس قد أجبرت البلاد على التوقف. مثلت البيئة القاسية أوروبا التي لا تستطيع النجاة بمفردها: شتاء بارد وحرب باردة.

من وجهة النظر البريطانية، كان التعاون الاقتصادي هاماً ولكن يجب التعامل معه

بشكل عملي بدون الوضع في الاعتبار هدف التوحيد الأوروبي. ولكن، وكما حذر بيفن زملائه الوزراء، فإن تشكيل منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي (آنفا) كان له عواقب بعيدة المدى. حاول البريطانيون منع هذه العواقب من أن تكون بعيدة المدي. تم إنشاء هذه المنظمة في باريس وكان أول أمين عام لها فرنسي. وكان أكثر ثمارها فائدة هو الاتحاد الأوروبي للمدفوعات الذى سهل المدفوعات بين الدول الأوروبية. كان من المفترض أن يكون التخطيط مع "المصلحة العامة". لم يكن هناك أي رغبة في أن تتشابك الخطط التي كان بها عنصر سياسي يتخطى السلطة الوطنية. في 1948 ستنضم بريطانيا إلى شركاء سبق وحكم بيفن على حالتهم السياسية بأنها غير مستقرة (ليست حتى فرنسا). في هذه السنوات كان على المفاوضين التقدم بحذر. كانت "السيادة القومية" مسألة حساسة. تلخص الأمر فيما إذا كان التعاون الاقتصادي يعبر عن توافق سياسي أعمق بين الدول المشاركة. ربما لم تعد السيادة شيء مقدس. إن أوروبا بهذا الشكل والتي لم تكن بأي شكل تتمتع بمؤسسات سياسية متجانسة استقرت على فهم مشترك للديمقراطية. تنافست الأحزاب السياسية على السلطة من خلال إنتخابات حرة (أياً كان النظام الانتخابي). وأبعد من ذلك فقد نشأت صعوبة بالنسبة لكل الأعضاء المحتملين للاتحاد الأوروبي. هل كانت الديمقراطية الأوروبية الغربية محايدة، كما بين الأيديولوجيات الاجتماعية الاقتصادية المتنافسة. هل يمكن أن تكون رأسمالية أو اشتراكية أم ستعبر عن طريق ثالث؟

الاتحاد السوفيتي: خلق أوروبا للشعب

واجه أوروبا الغربية المؤقتة بديلاً آخر. لقد تركت نتائج الحرب الاتحاد السوفيتي في موقع يمكنه من خلق أوروبا خاصة به. لقد جعلت المؤتمرات وقت الحرب حدود المجال السوفيتي واضحة. توهمت الاتفاقيات بأنها قد حددت نسب المصلحة التي يجب أن يحصل عليها الشرق والغرب في سلسلة من البلاد الأوروبية الشرقية. لقد كان لديهم وضوح فقط من وراء الستار. سيشرع الاتحاد السوفيتي على الفور في تحويل مناطق النفوذ إلى سيطرة كاملة. قد تختلف الوسائل المستخدمة لتحقيق هذه الغاية. لم يتم تجنب القوة الغاشمة لكن كان هناك عناصر مفضلة. لم تحقق الديمقراطية التمثيلية في شرق ووسط

أوروبا بين الحربين نجاحاً كبيراً. لم يتم الإشادة بكونها الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها حكم شعب متحضر. بعد 1945 لم يكن هناك نظام ديمقراطي ذو تأثير علي العقل العام. هناك شيء جديد وربما لا يكون سيئاً. أثناء الحرب تنبأ بينيس رئيس تشيكوسلوفاكيا والذي كان في المنفي في إنجلترا وبعد تلقيه تأكيدات من ستالين، نمو إمبراطورية سوفيتية جديدة بروح ديمقراطية شعبية جديدة كما ذكر. لقد كان من واجب الدولة خلق مواطنين صالحين (بعض منهم كانوا بلا شك سيئين) وليس من واجب المواطنين خلق الدولة. وفي مثل هذا السيناريو، يمكن أن تحظي الأحزاب السياسية بقاعدة جديدة. مثل هذا المشهد أفضل ما يمكن وصفه بالإكراه الديمقراطي. تم إهمال الحديث عن استيلاء الشيوعيين على السلطة.

كانت الأحزاب الشيوعية في جميع أنحاء أوروبا الشرقية من أحزاب الأقلية ولكن ليس بدون نمو وزيادة الثقة، كما في تشيكوسلوفاكيا. استجابوا بعد ذلك لحكم التاريخ. لم تمانع مجموعات المثقفين في العديد من البلدان، وخاصة الشباب منهم، من الانضمام لمقدمة الجيش. عاد المنفيون المعدون بشكل جيد من الاتحاد السوفيتي لحشد الدعم وفي بعض الأحيان الإطاحة أو حتى القضاء على الشيوعيين المحليين المشبعين بالنظام السوفيتي. تم هندسة التحول إلى ديمقراطية الشعب خطوة بخطوة وبوتائر مختلفة وباستخدام تكتيكات وعناوين مختلفة. لعبت الميليشيات الشعبية والمحاكم الشعبية دورها المشجع. اختلفت وتيرة ودقة التنفيذ من دولة لأخرى ولكن لم يكن هناك أي شك حول النتيجة النهائية. بدا الأمر كما لو أن هناك خطة رئيسية، وربما كانت موجودة بالفعل. جاء الحدث الذي اعتبر عالمياً نقطة تحول في فبراير 1948 باستيلاء الشيوعيين على الحكومة التشيكوسلوفاكية. قال بينيس للأمريكان في الماضي أن بلاده هي الابن الروحي لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية المجيدة. وفي أعقاب الاستيلاء كان وضع تشيكوسلوفاكيا المحدد ذاتياً كقناة واصلة بين أوروبا الشرقية والغربية قد قارب على الانتهاء. تم العثور على جثة جان مزاريك، وزير الخارجية، نجل مؤسس البلاد، أسفل نافذة مكتبه. تم وضع ظهور الدستورية في محله في تشيكوسلوفاكيا، كما في الأماكن الأخرى. ظل الإرشاد العام

والسيطرة على عاتق الحزب. اهتمت أجهزة الدولة المعنية بالحكم العملي والإدارة. تمت الإطاحة بالبرجوازية، حيث كانت موجودة بشكل كبير. كان التعليم أولوية وهدفه الأساسي هو إلهام الجيل القادم بتعاليم ماركس وانجلز ولينين وستالين. تم إرسال كاردينالات الكنيسة الكاثوليكية المتمردين إلى أديرة بعيدة ليتوبوا عن مواقفهم الرجعية المزعومة.

اعترف بينيس وقت الحرب بقيادة الاتحاد السوفيتي للسلاف. وهنا وجدت رسالة تاريخية لا تزال تتمتع بصدي. لقد كان بمقدورها إعطاء الهيمنة السوفيتية نوعاً من الأصالة. كان الاعتقاد بأن الأعراق تتمتع بخصائص مميزة لا يزال سائداً. تزعم المؤرخ الإنجليزي، أجنس هيدلام-مورلي، وجهة النظر القائلة بأنه في خضم الخطر القومي أظهر السلافيين بطولة وطنية لكنهم كانوا غير مبالين بالشئون العامة. اقترضت وجهة النظر هذه تضامناً كبيرا بين السلاف. تشوشت صورة الاتحاد السوفيتي كحامي للصرب والبلغار عن صورة روسيا القديمة وكان ذلك مفيداً على الصعيد السياسي. كل ذلك كان صناعة أساطير وتجاهل للعداوات الحقيقية. لم ينس التشيك ما فعله البولنديين في 1938 من غزو وفصل منطقة تيشن عن تشيكوسلوفاكيا. لم ينس البولنديين المعاملة التي تلقوها من الاتحاد السوفيتي منذ 1939 فصاعداً. ظن السلاف أن باستطاعتهم ذلك، ونظر البولنديون الكاثوليك للغرب وليس الشرق. في 1948 عاد كاهن شاب، كارول فويتيلا، من بولندا إلى روما ليجد الكنائس تتعرض لهجوم ممنهج. تضافرت الجهود لإضعاف نفوذ رجال الدين الكاثوليك. بعد ذلك بقليل صودرت ممتلكات الكنيسة، ولكن ليس الكنائس وأفنيتها. لم يكن باستطاعة الكاهن فعل شيء ليوقف القمع سوي إطعام رعيته. لم يكن هناك مجال للخلافات العرقية في فترة ما بعد الحرب من الناحية النظرية ولكن على أرض الواقع كان الأمر مختلفاً. التعميمات التي شبهت أوروبا الشرقية بالسلاف كانت محدودة القوة.

والحقيقة أن المنطقة كانت قد تعرت تماماً من الوجود الألماني والذي كان يشكل جزءاً لا يستهان به من تاريخها. عاد الألمان إلى ديارهم. تزامن طردهم وعلي رأس ذلك

الهولوكوست التي عانى منها اليهود أثناء الحرب، ولا يخلو ذلك من المفارقات المحزنة، لتحويل الحياة العرقية والثقافية لأوروبا الشرقية الوسطي. استطاع الاتحاد السوفيتي بدوره الاستفادة من هذه الحجة بأنه لولا مساعدتهم لوجد البولنديين والتشيك الألمان عائدون مرة أخرى. قدمت ألمانيا المقسمة، مع إبقاء الحكم في برلين الشرقية في المعسكر الشيوعي، تأكيدات مشابهة. تم تشكيل حزب الوحدة الاشتراكي في فبراير 1947 من خلال الاندماج القسري للاشتراكيين والشيوعيين. تم التغلب على الانقسام الكارثي في الطبقة الألمانية العاملة. لقد كان عصر "التحول الديموقراطي المناهض للفاشية". كان التخلص من النازية في المنطقة السوفيتية أكثر شمولاً، من حيث إزالة الأشخاص من مناصبهم، منه في المنطقة الغربية، على الرغم من وجود استثناءات خاصة. إن الرجل الذي حث على تأسيس ما أصبح بعد ذلك الجمهورية الديموقراطية الألمانية هو سكرتير حزب الوحدة الاشتراكي والتر أولبريشت. تم التأكيد على الجانب الشرقي لنظام الحكم بأشكال عدة. أصبحت الروسية هي اللغة الأجنبية الأولي الإلزامية في المدارس. تم إنهاء العلاقات الودية من خلال تعيين حدود الدولة ومنع اللاجئين والمطرودين من تشكيل جماعات مصالح. لم تعلن الدولة الجديدة أي رغبة في أن تصبح خليفة الرايخ الألماني السابق. وبشكل نظري، كان هناك تحول داخلي أكبر من أي حدث في جمهورية ألمانيا الاتحادية. لم تحاول أي دولة، على الصعيد الثقافي، أكثر في تعريف نفسها بدولة الطبقة العاملة. والأمر الأكثر إذهالاً هو أنه في إضرابات ومظاهرات صيف 1953 تخلي الكثير من أبطال العمل الاشتراكي عن دولتهم. لقد كانت دولة معادية للنزعة العسكرية تسعي لتحقيق أهدافها بطريقة عسكرية بحتة.

ترك التاريخ "أوروبا الشعب" مع بعض التنوع الذي لا يستهان به لكن المسار كان متوجهاً وبقوة نحو التوحد. يجب أن تظهر البلاد مزيداً من التضامن الاشتراكي أكثر من أي وقت مضي. وبعد دفع المندوب السوفيتي ومقابلة رئيس الجلسة زادنوف، وافق مؤتمر الأحزاب الشيوعية في فبراير 1947 على أنه حان الوقت لجمع كل الرفاق في قضية مشتركة. تم تعيين المكتب الإعلامي الشيوعي (كومنفورم) ومقره الرئيسي في بلغراد.

وكان هدفه يتعدى تلقي المكالمات الهاتفية من المتصلين. تم إعطاء اليوغوسلافيين والكاردلزيين والديلازيين دور البطولة في التشكيل الجديد ولكن قبل مضي عام تم طرد يوغوسلافيا. هوجم زعيمها، المارشال تيتو، الجندي السابق في الجيش الأحمر، والقائد العسكري وقت الحرب والآن رئيس الجمهورية الاتحادية اليوغوسلافية الجديدة بعد الحرب، بسبب انحرافاته الأيديولوجية. لم تنل التبعية استحسان تيتو. إذا أرسل الاتحاد السوفيتي جيشاً إلى بلاده لجعلها أكثر انضباطاً، فسوف يقاتل. لم يتم إرسال مثل هذه القوات. نجا تيتو ونظامه. لم يكن هو نفسه غريباً على القسوة. داخلياً لم ترحب شيوعيته بهذا الانحراف. كان نظامه القوي هو وسيلته الوحيدة للحفاظ على وحدة بلاده المتزعزعة. وفي بلدان الكتل الشرقية الأخرى تم تشديد السيطرة. تم تعقب أتباع تيتو ومعاقبتهم. ومع مرور كل سنة، وفي حين كان ستالين على قيد الحياة، بدا أن اتحاداً آخر قد أصبح قوياً. وعلى عكس أوروبا الغربية، حيث كانت دولها تتجه نحو نوع من الوحدة بدون أي إشراف من أحد، في أوروبا الشرقية كان هاك ستالين والاتحاد السوفيتي. هذا الفارق لا يمكن الاستهانة به.

ستالين: هل لازال يحافظ على الأمن؟

تخطي ستالين الاتحاد السوفيتي وكان موقفه العالمي بعد 1945 فريداً. لقد كان الوحيد من بين رجال الشرطة وقت الحرب الذين مارسوا سلطتهم باستمرار، قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب، حتى وفاته في 1953. عاد تشرشل القديم إلى منصبه بعد 1951 محاولاً بسط النفوذ العالمي وساعياً لإنهاء الحرب الباردة. كان هناك أيزنهاور، وكان جنرال عندما تقابلوا في موسكو في أغسطس 1945، الذي أصبح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في 1952. اعتقد ستالين وقتها أنه رجل عظيم، ليس فقط كجندي ولكن بسبب طبيعته البشرية الودودة واللطيفة والصريحة. كان من الممكن اعتبار ستالين رجل عظيم والمنقذ لبلاده في الحرب العظمي الوطنية الأخيرة. أي شخص كان يعرف أو لديه شك في سجله الإجرامي علي مدي الربع قرن السابق قد لا يجده محل إعجاب. وكأي وقت مضي، فقد تلاعب بحاشيته. ظل مولوتوف وزير الخارجية السوفيتي حتى 1949 لكن إيقاعه لم

يكن مفضلاً. لم يكن من الممكن ممارسة السياسة بدون الرجوع للآخرين لكن ستالين، كما يعلم الجميع، كان له اليد العليا. كان لديه سلطة الحياة والموت. كيف ينظر العالم للاتحاد السوفيتي تعني كيف ينظر العالم لجوزيف ستالين. لم يكن هناك نقاش عام. اعتقل ألكسندر سولجينتسين، الذي اشتهر بعد ذلك ككاتب، في 1945 بتهمة إلقاء تعليقات مهينة في حق ستالين. كان سيقضي الثماني سنوات المقبلة في معسكر عمل. تجنب كُتاب السير، حينها والآن البساطة وذلك في سعيهم لاختراق دواخل ستالين. ما ذكر من ماضيه في الجزء الأول ظل شيئاً مربكاً. كان هناك شيئاً واضحاً وبقوة. تم الفوز في الحرب ولكن بتكلفة باهظة. أظهر النجاح السوفيتي للعالم أن نظامه فعال. استمر توأمي الدولة في التعايش بشكل مربك، حامل الماضي الروسي ونموذج مستقبل العالم. لم يكن هناك ما يدعو للفخر. لا يجب أن يتعرض أمن الدولة للخطر مرة أخرى من جانب الغرب من ألمانيا بشكل خاص.

رفع ستالين كأسه في مايو 1945 في صحة دول الاتحاد السوفيتي، ولكن قبل كل شيء الشعب الروسي العظيم. لم تحوله الحرب العالمية لرجل عالمي (مصطلح يستخدم لمعاداة السامية). لن يغويه الشراب المُسكر الذي اعتمد عليه من زجاجات الكوكاكولا التي أرسلها له الرئيس الأمريكي. لم يكن الأدب الحديث الذي كان يقرأه غربياً. قد حقرت النخبة المثقفة في الماضي الروسي من نفسها أمام الثقافة الأجنبية دون مبرر. يمكن للوطنية السوفيتية أن تقف على قدميها. قادته أبحاثه للتأكيد على استمرارية اللغة الروسية. إلا أن هذه العلاقة الحميمة بينه وبين اللغة التي جعلها خاصته كان لها حدود. على ما يبدو فإنه في مستقبل العالم الاشتراكي ستختفي اللغات القومية. وستتطور لغة عالمية. تلقت الكنيسة الأرثوذوكسية، كمؤسسة روسية، مؤخراً مباركات لطيفة لكن قادتها سرعان ما أدركوا أن ذلك وضع مؤقت. سيتم محو الدين، حتى ولو كان روسياً. عندما نظر إلى الخريطة، كان ستالين راضياً تماماً عما رآه. لقد عادت "لنا" منطقة البلطيق والتي تكونت، كما اعتقد هو، من "أراضي روسية حقيقية"، كان يتحدث حينها مع رئيس الحزب الاشتراكي الجورجي. أصبح البيلاروس والأوكرانيين يعيشون معنا مرة أخرى

(وبلا شك برضا). بدا الأمر أن ما "يخصنا" قد يمتد من فلاديفوستوك إلى برلين. ربما كان من الأفضل، في ذلك الوقت على الأقل، دعم هذه الإمبراطورية السوفيتية بدلاً من السعي وراء التوسع العالمي للاشتراكية. وهنا توجد منطقة غنية للمناقشات النظرية، كما بالماضي. ما كان سيقوله ماركس ولينين وستالين في هذا الأمر قد اختلط. كان ستالين هو الوحيد الذي حدد ما تتطلبه "الحياة الحقيقية". تعايشت المشاكل السياسية مع الاندفاع التبشيري، دون حل نهائي.

استنتاجات بديلة

بعد وفاة ستالين، كانت هناك تكهنات محتومة، داخل أوروبا وخارجها، حول ما إذا كنا قد وصلنا لعصر جديد. إلى أي مدي يمكن أن نعزو كل ما حدث في أوروبا منذ 1945 إلى ستالين نفسه مباشرة؟ ولهذا السؤال ولأسئلة أخرى لم يتم إعطاء إجابة، وربما لا يزال غير ممكن. أن رحيل مثل هذا الرجل ترك قضايا القيادة والتوجه معلقة في الهواء. بعض الملاحظين حددوا علامات بأن الاتحاد السوفيتي أصبح متصلباً. البعض ظن أن هذا الاحتمال بعيد. هل كان هناك "ذوبان"؟ اعتقد تشرشل، في محاولته الأخيرة للتخلص من الوحش النووي في العالم، أن كلمة هادئة بين الرجال المهمين ستكفي. إستقال في أبريل 1955 لأسباب صحية، بدون تحقيق نجاح يذكر. لقد توفي الجيل الذى كان يقود الشأن العالمي والذي كان قد نما في 1890. آفاق جديدة قد تفتح. تقابل وزراء خارجية القوي الأربعة المحتلة في برلين في فبراير 1954 وذلك للمرة الأولي منذ 1947 لمناقشة المسألة الألمانية مرة أخرى. لم يؤدي حديثهم لأي شيء، لكنهم على الأقل تحدثوا. في مايو 1955 وقعت القوي الأربعة على معاهدة أعادت تأسيس النمسا كدولة ذات سيادة (وهي دولة لن تسعي أبداً لأي اتحاد سواء سياسي أو اقتصادي مع ألمانيا). وقد اتفقوا علي سحب قوات الاحتلال من البلاد بحلول نهاية العام. أعلن البرلمان النمساوي الحياد الدائم للدولة. وبمرور عقد منذ 1945 فقد يبدو أن المعاهدة قد خففت من التوتر الموجود في أوروبا. على الرغم من ذلك عقب ذلك التوقيع على اتفاقية وارسو. وفي إطار هذه الظروف وسعياً لتحقيق الدفاع المشترك، تعهد الاتحاد السوفيتي وألبانيا وبلغاريا

وتشيكوسلوفاكيا والجمهورية الديموقراطية الألمانية والمجر وبولندا ورومانيا على التشاور المتبادل. تم إنشاء قيادة عسكرية موحدة ومقرها الرئيسي في موسكو.

هل كان تقسيم أوروبا شيئاً داخلياً وغريبًا؟ أم هل كانت القارة مجرد مكان آخر لصراع الحضارات؟ في سبتمبر 1947 كتب جنرال ستالين الودود، دوايت أيزنهاور، في مفكرته أنه شهد معركة وصلت لحد الفناء بين النظامين. لم يمتلك أي رئيس أمريكي الخبرة الواقعية عن أوروبا مثلما كان أيزنهاور. لقد كان هناك شعور بأنه كان في "موطنه" هناك. بدأت روسيا في نشر الشيوعية في العالم. كانت أوروبا هي الساحة الرئيسية للحرب الباردة. أصبح "عالمه الحر" في مواجهة "العالم الشيوعي". لم يكن من السهل تحويل ذلك إلى تفاصيل. في الأصل، ألم تكن هناك مواجهة أساسية بين نظامين مختلفين ومعتقدات التي دعمتهم؟ من الممكن أن يحدث ذلك في أي مكان. كان يحدث في كل مكان. تجاوزت قيم الخلاف قارات معينة. مستقبل العالم كله كان على المحك. إحدي الحضارات سيحكم عليها بالفشل.

أخبر المؤرخ البريطاني كثير القراءة، أرنولد توينبي، في مارس 1947 أن حضارتنا لم يكن مصيرها محتوم. لقد تحول إلى نبي بدون متوسط نسبة المبيعات للنسخة المختصرة متعددة الأجزاء من كتابه دراسة التاريخ. صيغت رؤيته في فقرات في مجلة التايم. وقد أشاد بمؤشرات الالتزام الأمريكي تجاه أوروبا. ولاحقاُ في 1952 توقع قدوم إمبراطورية أمريكية عالمية. وقد يكون ذلك من حسن الحظ، حيث أنه بذهاب الإمبراطوريات ستكون هذه صفقة جيدة أكثر من روسيا وألمانيا واليابان (البدائل). إن العالم الغربي الذي كان يتبلور حول الولايات المتحدة الأمريكية، قد يعني فصلا جديداً واعداً في تاريخ العالم. إن ما اعتبره حضارة مقصورة على أقليات صغيرة قد يمتد لحدود أوسع بكثير شاملاً فلاحين آسيا وأفريقيا. إن مفهوم توينبي عن المجتمع الواحد ذهب بالأحداث أبعد مما فعل الكثير من المعلقين المعاصرين الآخرين.

ربما لا يكترث العالم أجمع بالتهديد الموجه للحضارة المسيحية الذي أوضحه تشرشل، كما سيتضح في الفصل التالي، عندما جاء إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد

الحرب وألقي خطابه في فولتون. ومهما كان ما يعنيه، فقد حدد هذه الحضارة في أمريكا الأوروبية. نظر الفاتيكان من جانبه إلى العالم من خلال روما. لم يسافر البابا ليقابل العالم قبل انتخابه في 1939 في مكتب بيوس الثاني عشر حيث ذهب به وزير الدولة إلى فرنسا وألمانيا والمجر والأرجنتين. لقد زار كلا من المملكة المتحدة وأمريكا بشكل غير رسمي. كان دوره وقت الحرب محل جدال. بعد الحرب كان عدائه للشيوعية شديداً. أصبحت الديموقراطية المسيحية سمة من سمات السياسة الأوروبية الجديدة على الرغم من عدم تقبلها في الوسط السياسي. كانت بعض التوجهات محافظة ولم تتطهر من الهيمنة السلطوية لكن البعض الآخر كانوا تقدميين مع وجود العنصر النقابي. أصرت بعض الأحزاب المسيحية وليس جميعها على الاستقلال عن نفوذ الفاتيكان. إن المزايا التي تم تأمينها للكنيسة بالاتفاق مع سالازار رئيس البرتغال (1950) وفرانكو رئيس إسبانيا (1955) توضح شكل أوروبا المسيحية الذي أراد الفاتيكان أن يراه. إلا أن الاستمرار في العزف على وتر أوروبا الشرقية هدد بخطر اعتبار المسيحية أوروبية الأصل. واجهت نفس الصعوبة الكنائس الغير كاثوليكية. عندما بدأ المجلس العالمي للكنائس في العمل في 1948، كانت جلسته الأولي في أوروبا، أمستردام. لطالما كانت الحرب الثقافية بين رجال الدين من سمات التاريخ الأوروبي الحديث. لقد ظلوا أحياء كما ظل الفتور الكاثوليكي/ البروتستانتي على الرغم من أن كلاهما فعل ذلك بشكل أقل وضوحا. مما لا مفر منه هو أو تسمية "مسيحي" حملت معها تلميحاً أن الأحزاب الأخرى غير مسيحية وربما تكون ضد المسيحية. البعض كانوا كذلك بالفعل ولكن على الرغم من بقاء كنائس الدولة في إسكندينافيا البروتستانتية وأجزاء أخرى في المملكة المتحدة إلا أن الديمقراطية الليبرالية لم تشعر بالراحة تجاه أي تفضيل للدين المسيحي.

بدا التوازي بين العالمين كاملاً. كان هناك ألمانيتين تتواجهان ولكنهما لا يعرفان بعضهما. وكان هناك أوروبيتين تبدوان على الصعيد السياسي والاقتصادي والثقافي أنهما تتحركان بعيداً موضحين في ذلك خطوط الصدع القارية الأخرى. قاومت الحكومات في أيرلندا وسويسرا والسويد وإسبانيا هذا الازدواجية البسيطة لأسباب مختلفة ولكن بدا

الأمر مقنعاً بشكل عام. إذا استمر الوضع الراهن لأجل غير مسمي فسيتلاشى الفضاء المسمى "أوروبا". كان هناك تحالفين عسكريين يواجهان بعضهما. كانت الأسلحة النووية موجودة على الجانبين. إلا أن أوروبا وعلى الرغم من مركزيتها كانت المكان الذي تقابل فيه النظامين لم تكن هي العالم أجمع. سيضع بقية العالم أوروبا في موضعها. تحول هذا الاهتمام الآن بالنسبة لأمريكا الشمالية، موطن كلا من القوي العظمي والأمل الكبير.